

ومع ذلك فليس من السير أن نتصور أن ابن الكلبي وغيره من الرواة قد نسجوا هذا القصص الكثير من مخيلتهم دون أن يكون له أصل ثابت من الواقع يعتمد عليه ويدور حوله . ومن الممكن أن تنفذ من خلال التفاصيل الكثيرة التي يزر بها إلى الحقيقة - أو على الأقل - نستطيع أن نقرب منها ، فما لاشك فيه أن امرأ القيس - حاول الثأر لأبيه ، وحاول أن يسترد عرش أسرته الضائع ، وأنه خرج في سبيل ذلك مستعينا ببعض القبائل ، وبمن التف حوله من خلعاء القبائل وشذاذ الأحياء وصعاليك العرب الذين كانوا يقومون في العصر الجاهلي بدور يتسبه دور الجنود المرتزقة في العصر الحديث ، وأنه سجل بعض الانتصارات على خصومه من بني أسد ، وأنه كان على وشك أن يحقق أهدافه التي خرج من أجلها ، لولا موقف المنذر بن ماء السماء منه للعداوة القديمة التي كانت بينه وبين أسرته ، ومن هنا كان طبيعياً أن يتجه إلى الغساسنة خصوم المناذرة التقليديين ، وما لاشك فيه أنه لجأ إلى الحارث بن جبلة الغساني ، وعند الحارث خطرت في ذهنه فكرة الاستعانة بقيصر الروم الذي كانت إمارة الغساسنة تدين له بالولاء ، مستغلا ما كان بين الدولة البيزنطية والدولة الفارسية التي كانت إمارة المناذرة تدين له بالولاء من صراع قديم وطويل ، وفي أغلب الظن أنه وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ ، وأنه أخذ طريقه نحو قيصر ، ففي شعره الثابت الصحيح تصريح بذلك حيث تراه في قصيدته الرائية التي يرويها الأضمعي الثقة يتحدث عن هذه الرحلة ، وهي القصيدة التي يقول في مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصراً وحلت سليمى بطن قو فعرعراً

وتبدأ القصيدة بمقدمة غزلية يصف فيها رحلة صاحبتها التي تنزل بالشام مجاورة للغساسنة ، لم يخرج منها إلى وصف رحلته هو إلى قيصر مسجلا أسماء المواضع التي مر بها في بلاد الشام :